السنة الثانية ليسانس : دراسات أدبية /لغوية /نقدية

الإحياء الشعري في المشرق العربي 1

محمود سامي البارودي

ولد محمود سامي البارودي سنة 1839 في مدينة دمنهور بجمهورية مصر، لأبوين من أصل شركسي، في أسرة ذات ثراء ونفوذ، وقد كان والده ضابطا برتبة لواء في الجيش المصري، حيث عُين مديرا لمدينتي "بربر" و"دنقلة" في السودان ومات هناك ومحمود في السابعة من عمره.

تعلم محمود سامي البارودي القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وأخذ مبادئ النحو والصرف، ودرس بعضا من مسائل الفقه والتاريخ والحساب، حتى أتم دراسته الابتدائية في مدرسة المبتديان بالقاهرة عام 1851.

التحق بالمدرسة الحربية سنة 1852، وتخرج منها عام 1855، وبدأ يظهر ميله للشعر العربي القديم وشعرائه الفحول، ثم التحق بالجيش السلطاني، وسافر إلى الآستانة عام 1857، وتمكن أثناء ذلك من إتقان اللغتين التركية والفارسية ومطالعة آدابهما، وحفظ كثيرا من أشعارهما.

ساعده تمكنه من التركية والفارسية على الالتحاق بنظارة الخارجية العثمانية، ولمّا عاد إلى مصر عام 1863 عمل مساعدا لإدارة المكاتبات بين مصر والآستانة، ثم حن إلى حياة الجندية، فانضم إلى الجيش (الحرس الخديوي)، وعين قائدا لكتيبتين من فرسانه، ثم أسندت إليه رئاسة الوزارة عام 1882 لمدة أربعة أشهر.

كان أحد أبطال ثورة 1881 الشهيرة ضد الخديوي توفيق بالاشتراك مع أحمد عرابي, وبعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم، وضد الاحتلال الإنجليزي لمصر عام 1882 قررت سلطات الاحتلال نفيه مع زعماء الثورة العرابية في أواخر سنة 1882 إلى جزيرة سرنديب القريبة من شبه القارة الهندية المعروفة حاليا بـ: سريلانكا، و بقي فيها أكثر من 17عاما يعاني الوحدة والمرض والغربة، فسجّل كل ذلك في شعره النابع من الألم والمعاناة.

وهناك تعلم الإنجليزية حتى أتقنها، ثم انصرف إلى تعليم أهل الجزيرة اللغة العربية، ليعرفوا لغة دينهم الحنيف، واعتلى المنابر في مساجد المدينة ليُفقّه أهلها شعائر الإسلام.

وطوال تلك الفترة ظل يرسل قصائده الخالدة، يسكب فيها آلامه وحنينه إلى الوطن، ويرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه، ويتذكر أيام شبابه ولهوه وما آل إليه حاله، ومضت به أيامه في المنفى ثقيلة بطيئة، فاجتمعت عليه الأمراض، وفقدان الأهل والأحباب، فساءت صحته، وضعف بصره...، ثم سمح له بالعودة إلى مصر في شهر سبتمبر 1899، وكانت فرحته بالعودة إلى الوطن غامرة، ترك العمل السياسي، وفتح بيته بالقاهرة للأدباء والشعراء، وكان من أشهر الوافدين إليه أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران وإسماعيل صبري، وقد تأثروا به جميعا ونسجوا على منواله، فخطوا بالشعر خطوات واسعة إحياء وتجديدا.

مؤلفاته : له ديوان شعر في جزئين، ومجموعات شعرية سُميّت (مختارات البارودي)، جمع فيها مقتطفات لثلاثين شاعرا من العصر العبّاسي, ومختارات من النثر تُسمّى (قيد الأوابد).

وفاته : توفي محمود سامي البارودي في 12 من ديسمبر عام 1904.

ويعتبر البارودي أحد أبرز قادة إحياء الشعر في المشرق العربي خلال العصر الحديث، حيث تأثر بأعلام الشعر القديم وبصفة خاصة منهم الشعراء العباسيين الذين اقتبس منهم مختاراته الشعرية، حتى بدأ كتابة الشعر على منوال ذلك الأنموذج القوي الرصين في موضوعاته وأسلوبه، فاستطاع أن يعود بالشعر الحديث إلى عصر ازدهاره متجاوزا التأثيرات الموضوعية والفنية التي ورثها معظم شعراء عصره عن مدونة الشعر المملوكي المليئة بالزخارف اللفظية غير المبررة، لذلك كان البارودي صورة واضحة عن كتابة الشعر في العصر الحديث كما كان يكتبه الشعراء العباسيون، فقد نظم قصيدة مطولة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، تقع في أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا، مقلدا فيها قصيدة (البردة) للبوصيري من حيث القافية والوزن، وسماها (كشف الغمّة في مدح سيّد الأمة)، يقول فيها:

يا رائِدَ البَـرْقِ يَمِّـمْ دارَةَ الـعَـلَـمِ واحْدُ الغَـمامَ إلى حَيٍّ بِـذِي سَـلَمِ

لا تُدركُ العَينُ مِنها حينَ تَلمَحُها إلا مِثـالاً كَـلَـمـعِ البَرقِ في الظُّلَمِ

كَأَنَّــهــا أَحـرُفٌ بَرقِـيَّـةٌ نَبَـضَت بِالسِّلكِ فَانتَشَرَت فِي السَّهل وَالعَلَمِ

لا شَـيءَ يَسبِقُـها إلّا إذا اِعتَـقَـلَت بَنانَتي في مَديحِ المُصـطَفى قَلَـمِي

مُحَمَّدٌ خاتَمُ الرُسلِ الَّذي خَضَعَت لَهُ البَـرِيَّـةُ مِـن عُـربٍ وَمِـن عَـجَمِ

سَميرُ وَحيٍ وَمَجنى حِكمَةٍ وَنَدى سَماحَةٍ وَقِرى عافٍ وَرِيُّ ظَمِ

قَد أَبلَغَ الوَحيُ عَنهُ قَبلَ بِعثَتِهِ مَسامِعَ الرُسلِ قَولاً غَيرَ مُنكَتِمِ

وكتب في الشكوى من الغربة و البعد عن الوطن قصيدته الشهيرة حين زاره خيال ابنته (سميرة) وهو في منفاه فقال:

تَأَوّبَ طيفٌ من (سميرةَ) زائرُ وما الطيف إلا ما تُريه الخواطر

طوى سُدفة الظلماء و الليل ضاربٌ بأرواقه والنجمُ بالأفق حائر

فيالك من طيف أَلَمَّ ودونه محيطٌ من البحر الجنوبي زاخر

و في الرثاء قال حين وصله نعي زوجته:

أيَدَ المنون قَدَحْتِ أيَّ زنادِ وَأَطَرْتِ أيَّةَ شُعْلةٍ في فؤادي

لا لوعتي تدَعُ الفؤادَ ولا يدي تقوَى على رَدّ الحبيبِ الغادي

يا دَهْرُ فيمَ فجَعْتَني بحَليلة كانت خلاصةَ عُدّتي وعتادي

إن كنتَ لم ترحم ضَنايَ لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادي

بل ويصل تقليد القدامى عند البارودي إلى أن يجعل عنوان إحدى قصائده: (على طريقة العرب) يقول فيها:

ألا حَيِّ من أسماءَ بعضَ المنازل وإنْ هي لم تُرْجِع بَيَانًا لسائل

خلاءٌ تعَفَّتْها الرّوَامس والتقَتْ عليها أهاضيبُ الغيوم الحوافل

فَلأْيًا عرفْتُ الدار بعد تَرَسُّمٍ أراني بها ما كان بالأمس شاغلي[1]

وهي قصيدة طويلة يخيل إليك عند قراءتها أنك أمام قصيدة لأحد شعراء الجاهلية مثل امرئ القيس أو عنترة أو طرفة بن العبد، وعلى كل فقد استطاع البارودي أن يرجع بالشعر في المشرق العربي إلى عهد قوته التي كان يزخر بها من ناحية الموضوعات ومن النواحي الفنية.

انتهى

[1] إبراهيم أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978، ص: 190.